الحياة والجمال والمثل ألفاظ تتردد فى كتابات العقاد ترددا واضحا ، وتتعانق فيما بينها تعانقا واضحا أيضا ، فلا غرابة إذا عنى العقاد بظاهرة التفرد ، وجعلها همه حيثما كتب فى التاريخ والأدب والنقد والفلسفة . وربما خيل إلى العقاد أن العناية بما يسميه الوقائع الخارجية تصرف الباحث عن الحياة الداخلية . والحياة الداخلية هى هذا التفرد . لكن هذه الحياة يمكن أن تتناول بمنظار الإنسانية المألوفة ، ويمكن أن تؤدى هذه الإنسانية إلى إهمال التفرد بعض الإهمال . وهذا ما لايميل إليه العقاد .

يميل العقاد إلى إضفاء الجدة والغرابة التى تنبه الذهن بعض التنبيه . وأريد هنا أن أصحب بعض نصوص العقاد ، وأن أذكر مثلا ربما لايخطر بذهن القارىء . ويخيل إلى أنه من الممكن أن أرجع إلى الكلمات الأولى من كتاب العقاد المشهور «ابن الرومى حياته من شعره».يقول فى تقويم القرن الثالث الهجرى : «كان أحسن الأزمان . وكان أسوأ الأزمان . كان عصر الحكمة وعصر الجهالة . كان عهد اليقين والإيمان . وكان عهد الحيرة والشكوك ، كان أوان النور ، وكان أوان الظلام ، كان ربيع الرجاء وزمهرير القنوط . بين أيدينا كل شىء ، وليس بين أيدينا شىء قط . سبيلنا جميعا إلى سماء عليين ، وسبيلنا جميعا إلى قرار الجحيم . تلك أيام كأيامنا هذه التى يوصينا الصاخبون من ثقاتها أن نأخذها على علاتها ، وألا نذكرها بصيغة المبالغة فيما اشتملت عليه من طيبات ومن آفات » .

هذا هو عصر الثورة الفرنسية ، هكذا استهل وصفه الكاتب الإنجليزى تشارلس دكنز فى بداية قصة المدينتين ، إلا أنك تنقل هذا الوصف إلى أمة غير الأمة الفرنسية ، وعصر غير القرن الثامن عشر للميلاد ، وأنت لاتخرج به عن زمانه ومكانه وفحواه ، إذ هو وصف صادق لكل عصر من العصور فى تواريخ الانتقال والاضطراب . ومن تلك العصور القرن الثالث للهجرة فى دولة الإسلام الشرقية ، وهو القرن الذى لايوصف فى جملته إلا بمثل هذا الوصف الغامض الجلى الذى كأنما يصف لك عصرين مختلفين لا عصرا واحدا متناسق الأوضاع والأحوال ، لأنه فى الحقيقة عصران مختلفان أو عدة عصور مختلفات ، وإن اجتمعت فى نطاق واحد من الزمان .